دراسة تطبيقية

الأدب والمرأة: بأي معنى؟ وبأي منهج؟!

وقفة مع د. عبدالحميد بوزوينة

بقلم: محمد إقبال عروي

تزدان مكتبة الفكر الإسلامي المعاصر بدراسات قيمة حول طبيعة الأدب الإسلامي وفلسفته النظرية، ولا يمكن للدارس إلا أن يعتز بهذه الإسهامات الجديدة.

وقد عاش المختصون والمهتمون بقضايا الأدب الإسلامي لحظات ممتعة مع كتاب د. عبدالحميد بوزوينة «نظرية الأدب في ضوء الإسلام»، الذي أقدمت على نشره دار البشير بالأردن سنة ١٩٩٠م في ثلاثة أجزاء. اختص الجزء الأول بالحديث عن الإسلام والأدب، أما الجزء الثاني، فقد عنونه صاحبه بـ «الأدب والمرأة». في حين اهتم الجزء الثالث بدراسة المذاهب الأدبية في ضوء نظرية الأدب الإسلامي.

ويمكن القول، من دون مبالغة، إن دراسة شاملة لأفكار الكتاب واجتهادات صاحبه، تحليلاً ونقداً، اتفاقاً واختلافاً، تحتاج إلى بحث مفصل، مما لا نقوى على القيام به في الظروف الحالية.

ولكني، مع ذلك، أستأذن الأستاذ عبدالحميد، لأعرض عليه، وعلى القراء الكرام، بعض الملحوظات المتعلقة بقضية «الأدب والمرأة».

١ ـ ملحوظة شكلية دالة:

ظاهريا، وكما هو مبثوث على وجه غلاف القسم الثاني من الدراسة، فإن هذا الجزء متعلق بقضية «الأدب والمرأة»، وهو عنوان مثير جدًا؛ لأن مكتبة النقد الأدبي الإسلامي تخلو من مثل هذه الكتابات، ثم إننا مطالبون بإبراز هذه العلاقة بين الأدب والمرأة في مستويات عدة.

أولها: عرض التصور الإسلامي للمسألة.

وثانيها: تحديد كيفية تعامل الأدباء، شعراء وقصاصين وروائيين ومسرحيين، مع قضية المرأة، وإلى أي حدٍّ.

هل الإكثار من الأحاديث الشريفة يغطي فقراً في الكتابات النقدية؟

وثالثها: المحافظة على المعادلة الصعبة بين الفنّي والتصوري.

لكننا عندما نشرع في دراسة هذا القسم الذي نيف على مائتين وخمسين صفحة، فإننا نجد موضوع الأدب والمرأة لا يشغل إلا حيّزا ضئيلا لا يتجاوز ثلاثين صفحة، في حين شغلت باقي الصفحات موضوعات أخرى مثل: الأدب والاقتصاد، والأدب والعلم، والأدب والنفس البشرية، والأدب والأخلاق، والأدب والمجتمع.

وبهذا، يتضحُ أن هذا القسم الثاني من الدراسة لا يقتصر على «الأدب والمرأة»، وإنما يضم قضايا متعددة. فلماذا يعنون بـ «الأدب والمرأة»؟؟

إن مثل هذه الممارسة من قبل الكتاب والدارسين، تخلق انطباعات سلبية لدى المتلقين، ألمحنا إلى بعضها في مقال لنا بعنوان

«ظواهر مرضية في المكتبة الإسلامية» (نشر بجريدة «المسلمون» خلال سنة ١٩٩١م).

إن المطلوب، علميا، أن يكون العنوان دالاً على محتواه دلالة دقيقة. وبالنسبة لحالة د. عبدالحميد بوزوينة، كان من الراجح أن يتخذ العنوان الصيغة الآتية: «الأدب والقضايا الاجتماعية»، فهذا العنوان أكثر دقة في إبراز مضمون الكتاب، وأنا لم أضف أي جديد في اختيار العنوان، فهو وارد في كلام الكاتب، إذ يقول إنه كان «يتحدث عن أهم القضايا الاجتماعية التي يجب على الأديب والناقد أن يدركها إدراكا صحيحاً، ويستزيد من المعلومات حولها في إطار القيم الإسلامية، ومعايير التعاليم الربّانية» (ص: ٢٥٣ ـ القسم الثاني).

٢ ـ منهج دراسة موضوع الأدب والمرأة:

أما عن الأفكار والمضامين الواردة في الصفحات الثلاثين حول موضوع الأدب والمرأة، فإن الدارس يفاجأ بأنها مضامين تقع خارج حدود نظرية الأدب، بعيدة عن دائرة النقد الأدبي، فهي أفكار تمتُّ بصلة قوية إلى المستوى الفكري والتصوري في الإسلام، وهي أحاديث عامة عن مكانة المرأة في الإسلام، وفي الجاهليات القديمة والحديثة، وهي دفاع عن مسألة تعدد الزوجات، واحتفاء قوي بالأسباب الموضوعية وراء هذا التشريع، وهي، أخيرا، تفصيل لدور المرأة في المجتمع الإسلامي، وإشارة إلى واجبات المرأة العلمية والاجتماعية.

وهذا الكلام، وإن كان في حد ذاته إيجابيا؛ لأنه يعرض التصور الإسلامي لقضية المرأة، فإنه، بالنسبة للنقاد، لا يقوى على أن يشكل مادة الحديث عن حضور المرأة في الإبداع الأدبي.

ثم يُخشى أن يكون الإكثار من مثل هذه الأحاديث، في كتابات النقاد أصحاب النظرية الإسلامية، مجرد غطاء يخفي خلفه فقراً في القدرة التحليلية، والكفاءة النقدية للأعمال الأدبية، بغية استخلاص ملامح التعامل مع المرأة، وإبراز خصائصه داخل الدائرة الإسلامية وخارجها.

وإلاَّ كيف يتقبل القارئ دراسة عن الأدب والمرأة، ليس فيها أية إشارة ـ مجرد إشارة ـ إلى عمل أدبي ـــ شعري أو سَردي، يكشف عن بعض ملامح العلاقة بين الأدب والمرأة في نظرية الأدب الإسلامي، أو في نظريات أخرى.

لقد بسط الدكتور أحكاما كثيرة، لكنه لم يدعمها بالنماذج التطبيقية، فمثلا يقول: «هذه أهم الملاحظات التي أحببنا ذكرها هنا، ليعلم الأدباء أن المرأة مكرمة مبجلة في رحاب الإسلام، ومهانة محتقرة معذبة مرهقة محطمة الأعصاب في فجاج الجاهلية المعاصرة، لقد ضاق العالم العربي بالنتاج الأدبي السخيف الذي يعكف على تقديم المرأة دوما في أشكال تصويرية حيوانية» (ص: ٤٣).

ولكنه لم يكلف نفسه - ولو عَبْرَ إحالة القارئ إلى العناوين والأسماء - مشَقَّة التنقيب، وتحليل الأعمال الأدبية، إسلامية وغير إسلامية، ليبرز بالدليل، كرامة المرأة في ظل التصور

الرواية ذات الأطروحة الإسلامية قدمت صورة متكاملة عن المرأة المعاصرة

الإسلامي، ومهانتها في المجتمعات المعاصرة، فضلا عن أن مثل هذه الأحكام تحمل طابعاً تعميمياً، يكذبه الكثير من الأعمال الروائية غير الإسلامية، والله تعالى يقول: ﴿**يا أيها الذين آمنوا كونوا قوّامين لله شهداء بالقسط، ولا يجرمنكم شنآن قوم على ألا تعدلوا، اعدلوا هو أقرب للتقوى، واتقوا الله إنَّ الله خبير بما تعملون**﴾. (المائدة ـ الآية: ٨).

وإذا سمح لي الأستاذ بوزوينة، فإنّي أرسم بين يدي القارئ، وفي عجالة قد تكون مخلة، بعض الأسس والإطارات التي تساعد على تأسيس منهجية سليمة للتعامل مع موضوع «الأدب والمرأة».

دراسة تطبيقية

- تتعلق الزاوية الأولى بمجموع التصورات الفلسفية حول المرأة في الإسلام، وهذه الزاوية الفكرية، يتمثلها الأديب والناقد باعتبارها منطلقات ثابتة تعصم صاحبها من الزيغ الفكري والانحراف التصوري.

ولعل فيما ذكره د. عبدالحميد بعضاً من تلك المنطلقات.

ـ أما الزاوية الثانية، فتبحث في علاقة الأدب والمرأة في الشعر الإسلامي الحديث، وذلك بتتبع حديث الشاعر الإسلامي عن المرأة، ومشاعره تجاهها في مختلف العلاقات، أمًّا، وأختا، وخطيبة، وزوجة، وشريكة في المبدأ والتضحية، وضحيَّة للتردي الحضاري المعاصر (وقد حاولنا إنجاز ذلك بصورة أوَّليّة في مقال لنا بعنوان: «البعد النقدي في مختارات الشعر الإسلامي الحديث»، نشر بجريدة «المسلمون»).

وكان من نتائج البحث أن الشاعر يستحضر في قصيدته صورة المرأة في مستويات عدة منها:

أ - مستوى التضحية والجهاد، عبر استحضار نماذج نسائية مستدعاة من التاريخ الإسلامي مثل «سمية أم عمار ابن ياسر»، و«خولة بنت الأزور»، كما في قصيدة «خولة بنت الأزور» للشاعر أحمد محمد صديق.

ب - مستوى الأم الحنون، مثل قصيدة «أمي» لشاعر الإنسانية المؤمنة عمر بهاء الدين الأميري رحمه الله، وقصيدة تحمل العنوان نفسه للشاعر عبدالرحمن بارود.

ج - مستوى المرأة المسلمة المجاهدة في العصر الحديث، مثل قصيدة: «أناشيد عائشة الأفغانية» للشاعر محمد بنعمارة.

د - مستوى المرأة التي تعيش واقع التردّي المعاصر، مثل قصيدة: «حطام امرأة» للشاعر صالح آدم بيلو.

- وأما الزاوية الثالثة، فتخصص للأدب والمرأة في النصوص السردية، وفي هذا المستوى،

دراسة تطبيقية

تقسم الدراسة قسمين: قسم يتعلق بجمع النصوص القصصية والروائية ذات الأطروحة الإسلامية. أما القسم الثاني، فيشمل الخطوة نفسها، لكن مع النصوص التي لا تحركها الأطروحة الإسلامية.

وبعد ذلك، يُبحث في طبيعة تعامل كلا الصنفين مع المرأة، لندلل بالنماذج والتطبيقات على مجموع المواصفات والخصائص التي تكتنف صورة المرأة داخل المسرود الأدبي سواء في اتجاه التكريم والاعتبار، أم في اتجاه «التشييئ» والاحتقار. وبعد ذلك، يتم استخلاص طبيعة تعامل الأدب المعاصر مع قضية المرأة.

وإذا كان المجال لا يتسع، الآن، للشروع في تطبيق هذه المنهجية، بمختلف شروطها ومقتضياتها، فلابأس من الإشارة إلى بعض النماذج.

لقد استطاعت الرواية ذات الأطروحة الإسلامية أن ترسم صورة متكاملة عن المرأة، وأن تجسد، عبر تقنيات السرد والوصف والحدث، مختلف الأوضاع والحالات الفكرية والسلوكية للمرأة المعاصرة.

والجدول الآتي يبرز بعض الأمثلة:

اسم الشخصية (المرأة)	عنوان الرواية	مؤلفها
ـ بدرية	شخصية في رواية «ليالي السهاد»	نجيب الكيلاني
ـ صافي	شخصية في رواية «ليالي السهاد»	نجيب الكيلاني
ـ عنايات هانم	شخصية في رواية «ليل وقضبان»	نجيب الكيلاني
ـ ميمونة	شخصية في رواية «حكاية جادالله»	نجيب الكيلاني
ـ انتصار	شخصية في رواية «حكاية جادالله»	نجيب الكيلاني
ـ ظبية	شخصية في رواية «الغيمة الباكية»	عبدالله عيسى السلامة
ـ فاطمة	شخصية في رواية «عذراء جاكرتا»	نجيب الكيلاني
ـ فوزية حمزة	شخصية في رواية «القابضون على الجمر»	محمد أنور رياض
ـ ياقوتة	شخصية في رواية «اليوم الموعود»	نجيب الكيلاني

ـ تمثل «بدرية» داخل رواية «ليالي السهاد» صورة المرأة المسلمة التي استطاعت مواجهة مشكلات جسيمة تمثلت في اعتقال زوجها «عبدالقادر» بتهمة الانتماء إلى الحركة الإسلامية بمصر، وطرده من العمل، وارتسم بين يديها طريقان: طريق السقوط والانحراف، وطريق الصمود والثبات، فاختارت الطريق الثاني، وتمكنت من الحصول على عمل شريف لتعول به نفسها وطفلتها «هدى».

ولم يقتصر صمودها على هذا المستوى، بل عبرت عن حالة رفيعة من الصبر والثبات، وهي ترى زوجها الذي حقق نجاحا باهرا في عمله بشركة الحاج «علي محمود»، يستسلم لضعفه، فيتزوج بـ «صافي» نموذج المرأة المتحررة من رقابة الأخلاق والضمير، الغارقة في عالم الفن الساقط... «صافي... لعلها الباب الذي يدخل منه التائبون والنادمون إلى الدنيا الجديدة... حيث المرح والسرور، وحيث الشطرنج والكؤوس، وعرض الأفلام، والبذخ، والغناء، والاختلاط، والمؤانسة، والحب...» (ليالي السهاد. ص ١٠٥ـ١٠٦).

لماذا اختلّت مفاهيم بعض النقاد وأصبحوا يبحثون عن شعارات بدلاً من الجوهر؟

وبالرغم من وخز هذه المعاناة، كانت تتسلح بالمقاومة النفسية، وتتقرب من زوجها لتمسح عنه آلام ضعفه ومعاناته... إلى أن انتصرت، وكُلّلت جهودها بالنجاح، حيث يستيقظ «عبدالقادر» من غفلته، فَيُطلّقُ زوجته الثانية «صافي»؛ لأنها لا تمت بصلة إلى عالمه الفكري والسلوكي المؤسس على صفات الإلتزام ومبادئ الأخلاق.

ونستطيع القول إن الكيلاني، برصده للملامح الداخلية والخارجية لشخصية «بدرية» و«صافي»، يكون قد أقام علاقة انفصالية بين عالمين متباينين: عالم المرأة الملتزمة، وعالم المرأة المتحررة التي تحولت إلى رقم جديد في عالم الدّعارة والجاسوسية. وهذه العلاقة الانفصالية تذكر بمثيلتها في رواية «حكاية جادالله»، بين «ميمونة» زوجة البطل، و«انتصار». (انظر دراستنا للرواية في مجلة «المسلم المعاصر». ع: ٥٣. ص: ١٥٣).

أما في رواية «ليل وقضبان»، فإن شخصية «عنايات هانم» تظل نموذجا للمرأة ضحية التفكير التقليدي المنحرف عن التربية الإسلامية، فهي سليلة أسرة عريقة تتمسك بالتقاليد، وعندما نالت «البكالوريا»، أرادت أن تُتِمَّ تعليمها، لكن أباها آثر أن يمضي في إجراءات زواجها، فاضطرت إلى الخضوع للأمر الواقع، وتَمَّ زواجها من مدير السجن «عبدالهادي بك»، الذي كان عقيماً، وقد صنع منها هذا الزواج الغريب شخصية مزدوجة السلوك، «فهي أمام الناس الزوجة الطائعة الوفية التي يمدح الناس سلوكها، ويثنون على رقتها وأدبها، وهي في الخفاء أمام «فارس» المسجون، الخاطئة التي لا تعرف للشرف معنى، ولا للطهر والعفاف مدلولاً، والتي يصل بها الأمر، في سبيل شهواتها، أن تفكر في قتل زوجها حتى يخلو لها الجو مع عشيقها». (من مقال للدكتور عبدالمنعم عواد يوسف، انظر: «رحلتي مع الأدب الإسلامي» للكيلاني. ص: ١٨٧).

وهكذا أغرت «فارس» المسجون، واستدرجته إلى أن مارس معها الرذيلة دون علم زوجها المريض.

إن «عنايات» تختزل ـ هنا ـ صورة العديد من نساء مجتمعاتنا العربية والإسلامية، من اللواتي زُحْنَ ضحية سوء التعامل وإسكات أصواتهن باسم الدين، والدين براء من هذا السلوك الشائن، والإنسان ـ أي إنسان ـ عندما يستيقظ من غفلته، ويشعر بأنّه كان ضحية، فليس أمامه إلا أن يصحح المسار، إذا بقيت له فرصة، أو الانتقام، بما يتاح له من وسائل وأساليب. ولم يكن في استطاعة «عنايات» أن تصحح المسار، فارتمت في أحضان الخيانة والرذيلة.

وتمثل كل من «فاطمة» في رواية «عذراء جاكرتا». و«ياقوتة» في رواية «اليوم الموعود» للكيلاني، و«فوزية حمزة» في رواية «القابضون على الجمر» لمحمد أنور رياض، صورة المرأة المجاهدة، وإن تفاوتت مجالات التضحية، وتنوعت أساليبها لاعتبارات موضوعية، إذ أن «ياقوتة» تضطر، ليس بالمفهوم الشرعي للضرورة، حتى لا نُتَّهَمَ بأنّا نساير السارد في إضفاء الشرعية على سلوك «ياقوتة». قلنا: إن «ياقوتة» تضطر إلى زيارة الأعداء الصليبيين في خيامهم، وترقص في حضرتهم، موهمة لهم بأنها امرأة ساقطة، لا علاقة لها بالسياسة وشؤون الحرب، لكنها، في الواقع، تمثل عينا للقائد فخر الدين، تنقل إليه أخبارهم، وتطلعه على مخططاتهم وتحركاتهم الهادفة إلى القضاء على المسلمين.

أما «فاطمة»، فإنها نموذج الجهاد الفكري والدعوي ضد الشيوعيين في «جاكرتا» عاصمة «أندونيسيا»، وقد تُوّج جهادها بنيل الشهادة. يقول السارد في آخر الرواية: «وعاد أبو الحسن ـ خطيبها ـ وعاد حاجي محمد إدريس ـ والدها. لكن فاطمة لم تعد إلا في صندوق خشبي... وملابسها البيضاء الطاهرة مخضبة بالدماء... لقد انطلقت في الظلام رصاصة آثمة أودت بحياتها... سقطت عذراء جاكرتا شهيدة... وفي يدها وردة حمراء ذات أشواك... وعلى ثغرها ابتسامة رضى... وفي جيبها مصحف صغير... تبلل أهدابها الطويلة دمعة عشق خالدة...» (عذراء جاكرتا. ص: ١٦٧).

وأما «فوزية حمزة»، فبالرغم من مراقبة السلطة لتحركات الإخوان في عهد عبدالناصر، ومع ما يكتنف الجو العام من إحساس بالرعب، فإنها تختار أن تكون همزة وصل بين الشباب الذي تولّى إعالة العائلات التي استشهد عائلوها أو لا يزالون رهن الاعتقال، فتأخذ منهم المال والإعانات... وتطوف شوارع المدينة وأزقتها لتقدمها لمستحقيها... «وبدأت تطوف بالبيوت بيتا بيتا.. فوجدت ما لم تكن تتصوره.. عالم آخر... كأنه انفصل عن هذه الدنيا... انفصل بعملية جراحية... أو بتر... وجدتْ سيدات بلا أزواج منذ عشر سنوات...، وأطفالا... لا يذكرون عن آبائهم إلا أطيافا هلامية تطوف برؤوسهم الغضة». (القابضون على الجمر. ص: ٢٨٧).

وفي رواية «الغيمة الباكية» للروائي السوري «عبدالله عيسى السلامة»، تتشكل ملامح «ظبية» في اتجاه تشكيل نموذج نسائي متشبع بالفهم السليم للدين، فهي تحافظ على صلاتها، وتجتمع ببعض فتيات القبيلة، تعلمهن دينهن، وتساعدهن على حفظ سور من القرآن، لكنها تعيش بعض الاضطرابات النفسية الناتجة عن عدم استطاعتها التوفيق بين مبادئها الإسلامية من جهة، وواقعها القبلي المتخلف على كافة المستويات.

فعندما بشرها أبوها بأمر خطبتها للعبد «بارع ابن العبد زناد»، شعرت «ظبية» باضطرابات حادة في نفسها نتيجة «الانفصام الغامض في أعماقها بين أفكارها النظرية السامية التي تلقتها عن الشيخ عباس المدلول، وهي أفكار ترتبط بالأخوة والمساواة بين الأحرار والعبيد... وبين مكونات شخصيتها الأخرى الأساسية الموغلة في أعماقها من مشاعر وقيم وأخلاق وأفكار وتصورات تراكمت في أعماقها عبر عشرين سنة من التربية في أجواء قبيلة مشحونة بقيم خاصة، وبتصورات خاصة لمعنى الحر ومعنى العبد...» (الغيمة الباكية. ص: ٥٥).

* * * *

فهذه النماذج المبرزة لطبيعة موضوع الأدب والمرأة، قادرة على أن تشكل لبنات تطبيقية لمنهج سليم في اقتحام هذا الموضوع، وإبراز صورة المرأة في المسرود الإسلامي، وعلاقة ذلك بالذات وبمحيطها، عبر رصْدِ ارتباطاتها المختلفة بمجموع مكونات العمل الروائي، مثل الارتباط بالفضاء، وبسائر الشخصيات، وبرؤية السارد أولا وأخيرا.

وهذه المنهجية تمثل عملا جادًّا، لا يمكنه أن يثمر إلا إذا رصدت له جهود جماعية، أما أن نتحدث عن الأدب والمرأة حديثا عاما يلج في قضايا فكرية، فهذا الحديث مُحَالٌ على الفكر الإسلامي، وليس له مكان، بتلك الضخامة، في كتب النقد الأدبي، وإلا اختلطت المفاهيم، واضطربت الأفكار، وأصبحنا «نؤدب الإسلام» في الوقت الذي نرفع شعار: «أسلمة الأدب»، وقد قلنا منذ نحو عقد من الزمن: «إننا نهدف إلى أسلمة الأدب، لا تأديب الإسلام».

ثم إننا لسنا ضد الحديث عن تلك المفاهيم، ولكننا نطالب نُقَّادَنا بِرَصْدِ تجلياتها في الأعمال القصصية والروائية والشعرية، ليبرزوا لنا مكانة المرأة في الإسلام بصورة فنية، أو ليدللوا على قدرة تعدد الزوجات، مثلا، على معالجة العديد من المشكلات الاجتماعية والجنسية والنفسية، وذلك عبر نماذج قصصية حيّة، يتقبلها المتلقي ويقتنع بها. أما أن نختار خطاب الفكر والتحليل المنطقي القائم على الاستدلال بالآيات والأحاديث والوقائع والإحصاءات، فهذا حديث يقع خارج مجالي الأدب ونقده.

قد يحتج د. عبدالحميد بوزوينة على عدم ذكره لبعض النماذج السالفة أو غيرها، بأنه في معرض التنظير، وليس في معرض التطبيق. والواقع أن هذا الاحتجاج مرجوح، إن لم نقل إنه مردود، ويكفي، بغية الرّدّ المختصر، أن نشير إلى أن كتاب «نظرية الأدب» لـ «رونيه ويليك» و«أوستن وورين» ـ وهو كتاب تنظيري ـ حوى مئات الأمثلة والنماذج التطبيقية في الأدب القديم والحديث، إيمانا منهما بأن التنظير لا يتمُّ بمعزل عن التطبيق، والعكس صحيح.

إن وجاهة التطبيق لا تقوم بالاستناد إلى هذا الناقد أو ذاك، وإنما؛ لأنها عنصر رئيسي في العملية المنهجية ذاتها، لا يمكن تصور قيام مشروع نقدي بدونها.